وأيا ما كان الأمر في موضوع السبق المادي ، فإن العنصر الروحي الأخلاقي في الحضارة هو الأهم أو هو العنصر الحقيقي إذا ما قيس بالعنصر المادي ، والشأو الذي بلغته الحضارة الإسلامية في هذا المجال ، والدور الذي يمكن أن تؤديه مرة أخرى في عالم اليوم لم يعد بحاجة إلى المزيد من الكتابة والبيان ، وفي فصول هذا الكتاب القيم – وبخاصة تلك التي تحدثت عن النزعة الإنسانية والمساواة العنصرية والرفق بالحيوان وأخلاقنا الحربية ـ دلالة وغناء . ولكن القارئ قد يظن في تأكيد أستاذنا (رحمه الله) على العنصر الروحي الأخلاقي نوعا من التعويض أو القناعة بما تملكه العقيدة الإسلامية أو يمكن أن نقدر نحن وهذا الظن – من عجب ـ آخر ما يخطر ببال أبناء الحضارة الأوربية الذين بدؤوا يقرؤون ـ بحسهم الحضاري ـ بوادر السقوط في هذه الحضارة ! وأول ما يخطر ببال أبناء المسلمين الذين ما يزالون مفتونين بحسهم المعطل وما لديهم من قابلية ـ للاستعمار ـ بالمنجزات المادية لتلك الحضارة . وفي هذا المجال وإضافة لما اشار إليه أستاذنا السباعي (رحمه الله) وتأكيدا له أحب مرة أخرى أن أسجل الكلمات المعبرة الدقيقة التي كتبها أشفيتسر حول تقديم العنصر الروحي ، لا بوصفه من أبناء الحضارة الأوربية فحسب ، الموضوع من خلال المقدمات والمقاييس التي هي في متناول الجميع ! يبدأ (اشفيتسر (فيقول : إننا نستطيع أن نعرف الحضارة – بصورة عامة بأنها التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء) . ثم يتساءل بعد ذلك عن مقوماتها ؟ ويجيب عن ذلك بأن أول مقوماتها : أنها تقلل الأعباء المفروضة على الأفراد والجماهير . هذه الأعباء الناشئة عن الكفاح في الوجود . يقول أشفيتسر : (وإيجاد الظروف المواتية للجميع في الحياة قدر الإمكان مطلب يطلب لنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يطلب من أجل كمال الأفراد روحيا وأخلاقيا ، وهو الغاية القصوى من الحضارة) . ثم يقول : (والكفاح في الوجود مزدوج . فيحب أن يؤكد الإنسان نفسه في الطبيعة وضد الطبيعة ، وكذلك بين إخوانه في الإنسانية وضدهم) وتخفيف الكفاح يتحقق بتقوية سيادة العقل على الطبيعة الخارجية والطبيعة الإنسانية ، وجعله يخدم الأهداف المطلوبة بكل دقة ممكنة) . ولهذا فإن الحضارة مزدوجة الطبيعة : فهي تحقق نفسها في سيادة العقل أولا على قوى الطبيعة ، وثانيا : على نوازع الإنسان » هذا التحليل للازدواج في طبيعة الحضارة دقيق وواضح ، ولكن السؤال الهام موضوع البحث ـ أي هذين النوعين من أنواع التقدم هو التقدم الحقيقي في الحضارة ؟ يجيب أشفيتسر بأنه النوع الثاني ، وإن كان أقلهما ظهورًا عند الملاحظة) ويعلل ذلك بأن سيادة العقل على الطبيعة الخارجية لا تمثل تقدمًا خالصا ، بل تقدما تقترن فيه المزايا بالمساوئ التي يمكن أن تعمل في اتجاه البربرية ! فلابد أن تكون ثمت سيادة للعقل على نوازع الناس حيث لا يستخدم بعضهم ضد بعض القوة التي أعطتهم إياها السيطرة على هذه القوى (لأن ذلك يلقي بهم في كفاح للوجود أشد ترويعا من ذلك القائم بين الناس الذين يعيشون على الفطرة والطبيعة البدائية) فدعوى التحضر إذن لا تصدق إلا بالاعتراف بهذا التمييز بين ما هو جوهري للحضارة وما ليس كذلك . على أنه يمكن عد كلا نوعي التقدم هذين عملا روحيا ، بمعنى أن كلا منهما يقوم على نشاط روحي في الإنسان ، لكننا نستطيع أن نعد السيادة على القوى الطبيعية تقدما ماديا ؛ لأننا فيه نسيطر على الأمور المادية ونستغلها لصالح الإنسان . أما سيادة العقل على النوازع الإنسانية فهي عمل روحي بمعنى آخر ، أي عمل قسم من قوة التفكير في قسم آخر منها .

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي